«عباد شمس»، وذهب في الكتابة «محاولا» نقل القرية من مستوى الفكرة المجردة الى مستوى الكيان الحي الذي يتحرك متميزا بحقوله، وينطق محددا بلغته، ويمارس لصيقا بعاداته وتقاليده. وبعد ان حدد المكان «ادخل فيه» الانسان الفلسطيني، ورفع هذا الانسان الى زمانه، اي الى صراعه المتجدد والمستمر مع العدو الاسرائيلي. وفي هذا الزمان والمكان اطلق الكاتب شخصياته، وترك حركة شعبه تحدد سيماءها كصراع يدافع عن الارض والتاريخ والهوية الوطنية. اذا كان هذا هو مشروع الكاتب، فما هي حدود تحققه الروائي؟ وما هو شكل العلاقة بين المُعاش والمتخيل؟ وهل تحتوي اللغة الواقع، ام انها تتكسر حيرة في عجزها امام حركة الواقع وخصوبته وحقيقته الملازمة له؟

عندما نقرأ الواقع الفلسطيني في سطور «عصافير الشمال»، فإن القراءة لا تستطيع ان تساوي دائما بين الواقع والسطور، لان الكتابة، في تجريدها، لا تنتج الواقع في حركته بل تجرده من حركته وتلقي به صامتا في زوايا اللغة الذهنية، اي ان اللغة لا تنتج الواقع الذي نكتب عنه بل تنتج واقعها الوهمي. لقد بذل «علي حسين خلف» جهدا واضحا في بناء لغته، كما بذل جهدا موازيا في رسم الشخصيات، وتدخل «واعيا» لتحديد سيماء هذه الشخصيات. لكن هذا الجهد المبذول في اللغة والشخصيات لم يوصل «الرواية» الى مستوى التخييل بل الى مستوى التهويم، لذلك فإن القراءة لا تحفظ الشخصيات ولا تتذكرها بعد انتهائها، كما انها لا تعيش الفضاء الروائي او الوسط الفلسطيني الذي سعى الكاتب الى انتاجه. والحقيقة ان رواية علي حسين خلف تطرح مسألة الفرق بين التجريد الفني والذهنية او التهويم. فالتجريد الفني يقوم على انتاج واقع يعرفه او على انتاج المعادل الفني لواقع يعرفه، اما تخيل هذا الواقع وانتاجه «فنيا» فلا يعطي في النهاية الا واقع الفكر. هنا يعاد طرح سؤال العلاقة بين المعرفة والعمل والروائي، وسؤال منطق الواقع المعاش ومنطق الذهن المجرد، فعندما لا يقترب المنطق الاول من الثاني فإن العمل الفني لا يتهافت فحسب، بل يتلاشى الاثر السياسي - الايديولوجي الذي سعى اليه الكاتب منذ البداية.

امر آخر تطرحه رواية «علي» ومعظم الروايات الفلسطينية الاخرى، والسؤال هنا هو عن معنى الرواية ودلالتها ووظيفتها الاجتماعية. لن نناقش هنا هذا الامر بكل تفاصيله، بل سيقتصر نقدنا على نقطة واحدة، هي: الفرق بين اللغة الانشائية واللغة الروائية. فاللغة الاولى لغة خارجية، ستاتيكية، لا تسعى الى تطوير معنى او الاشارة الى تناقض، بل تعيد فكرة تراوح حول ذاتها بمضامين مختلفة. اما اللغة الروائية فهي لغة ديناميكية، وظيفية، ترتبط بوضع وتتطور فيه، او لا تأخذ معناها الا من محايثتها له. لذلك فهي لا ترى خارج الوضع الذي تحكيه. وعندما نقرأ «عصافير الشمال» نجد فيها لغة جميلة، «مصنوعة» لكن هذه اللغة تقوم خارج الفعل الروائي لا في داخله. وقد وصف «علي» واغرب في الوصف حتى وصل الى حدود «التيه في اللغة» او الى حدود اللامعنى: «نظف الطرحة فبدت كرأس غزال بقادم واحد، وهنيئة كغزال تمرح في البراري وتطوف الاحراش بقادمين» ص:٤٩. او: «رفع يافة كبوته وغطس رأس جميل وادي كبصيلات الزنبق الاحمر الجبلي النابتة في آباط الاوراق». ص:٤٩.